



شيفرة Gillette السلوكية

خارج السلسلة

(شيفرة بين الشيفرات)

«الكلمات تخبرك من يتنى المرء أن يكون. والسلوك يخبرك من كانه زمناً كافياً حتى صار».»

أولاً. الشيفرة السلوكية

من بين كل الشيفرات التي تحكم حياة البشر، لعل الشيفرة السلوكية أقلها ملاحظة وأكثرها حضوراً. ليست مدونة في القوانين. لا تظهر في اللوائح. لا تُدرس صراحةً في المدارس. ومع ذلك ترافق كل فرد من أول وجوده إلى آخره — فتشكل اختياراته، وردود أفعاله، وميوله، ومسافاته، وصمته، وحتى أخطائه.

حين نتحدث عن شعوب العالم، نصف ثقافات وتقاليد وعادات ومعتقدات. وحين نتحدث عن الفرد، يُوكل التفسير عادةً إلى ركيزتين كبيرتين: الوراثة والتربية. في جهة ما يُورث، وفي الأخرى ما يُتعلّم. تفسير مرتّب، مطمئن، وصحيح في جزء منه. لكن الحياة الواقعية تُظهر شيئاً أشد تعقيداً. أناس نشأوا في الأسرة نفسها تتكوّن لديهم سلوكيات متباينة تبايناً جذرياً. وأفراد من ثقافات متباعدة يتفاعلون مع الأحداث بطرق متشابهة إلى حدّ مدهش. إخوة ربّاهم الأبوان أنفسمهما يسلكون طرقاً متعاكسة، وغرباء ولدوا في قارات مختلفة يبدون كأنهم يتقاسمون المنطق الداخلي نفسه.

ثمّة إذن شيء يفلت من أسهل التصنيفات. هو ما أسميه الشيفرة السلوكية. لا تُرى من النظرة الأولى. ليست أنيقة كبذلة تحمل توقيع مصمّم، ولا صارخة كثروة معروضة، ولا يُتعرّف عليها كما تُعرف لكنة أو لغة. لا تترك أثراً ظاهراً على وجه الإنسان.

الشيفرة السلوكية تسكن في مكان آخر. في الطريقة التي يواجه بها المرء صعوبة. في السرعة التي يمنح بها ثقته. في تصرّفه في السلطة حين تصير في يده. في اختياره أن يفني بوعده أو أن ينكثه. في قدرته على الانتظار — أو عجزه عنه.

قد يقول شخصان الكلمات نفسها ويأتيان بالحركة نفسها. ومع ذلك قد تكون الشيفرة التي تحرّكهما مختلفة تماماً. السلوك الظاهر ليس إلا سطح الظاهرة. ما نلاحظه كل يوم ليس الشيفرة، بل أثرها. وكما أن الريح

لا تُرى مباشرةً أبداً لكنها تتجلى في حركة الأشجار، كذلك تُستشفّ الشيفرة من الأفعال، ومما يتكرر، ومن اختيارات الإنسان على مرّ الزمن.

وأكثر سماتها إثارةً للاهتمام هي الثبات. الآراء تتغير. الأيديولوجيات تتغير. المهن تتغير. حتى أعمق القنوات قد تبدل على امتداد العمر. أما الشيفرة السلوكية فتتميل إلى الاحتفاظ ببنية يمكن تمييزها. قد تتكيف، وتتهذب، وتنضج أو تنحط، لكنها قلماً تختفي. ولهذا يبقى بعض الناس أهلاً للثقة حتى حين يخسرون كل شيء، فيما يصير آخرون عصيين على التوقع لحظة يكسبون شيئاً. ولهذا يظهر الطبع قبل كل شيء تحت الضغط، حين ترتخي الأقنعة الاجتماعية وتمسك البنية الداخلية بالزمام.

مراقبة الشيفرة السلوكية هي إذن مراقبة الكائن البشري في اتصال أفعاله، لا في استثناء كلماته. الكلمات يمكن إعدادها. أما السلوك، على المدى الطويل، فأقلّ قابليةً لذلك بكثير. ولهذا كانت الشيفرة من أثمن الخرائط لفهم الأفراد والمؤسسات والجماعات، وحتى الأمم. إنها لا تصف ما يعلن الإنسان أنه هو، بل ما يميل إلى أن يصيره حين تضعه الحياة على المحك. وبين الفكر والفعل تمتد في كثير من الأحيان كل المسافة التي تفصل النية عن الحقيقة.

ارجع بضع خطوات إلى الوراء، تعد إلى البيت الأول — إلى الأصل. إلى بشر لم يملكوا نظريات، ولم يعرفوا شيئاً عن علم النفس ولا علم الاجتماع ولا الوراثة. لم يملكوا إلا الحاجة إلى البقاء. في ذلك العالم البدائي لم يكن ردّ الفعل قد صار بعد اختياراً ثقافياً أو مصلحة شخصية. كان استجابةً للحياة نفسها. هناك على الأرجح تبدأ الشيفرة السلوكية: في الملاحظة، في التكيف، في القدرة على قراءة الخطر والثقة والمسافة والانتماء. قبل أن يتعلم البشر تفسير أنفسهم بزمان طويل، كانوا قد تعلموا أن يستجيبوا. وقبل الأديان والأمم والمهن والأيديولوجيات بزمان طويل، كان هناك أفراد يواجهون العالم بطرق مختلفة. بعضهم كان يراقب قبل أن يفعل؛ وبعضهم كان يفعل قبل أن يراقب. بعضهم كان يبني التحالفات؛ وبعضهم كان يؤثر العزلة. بعضهم كان يتقاسم النار؛ وبعضهم كان يذود عنها.

لعل الشيفرة السلوكية هي هذا بالضبط: ذاكرة عميقة تعبر الزمن دون أن تكتب اسمها مرة واحدة. تتغير الثياب، وتتغير اللغات، وتتغير التقنيات — لكن شيئاً ما يظل يعود في اختيارات البشر كتوقيع قديم لا يرى.

لهذا السبب نظرتُ دائماً إلى ما يتكرر أكثر مما نظرتُ إلى التصريحات. وإلى العواقب أكثر مما نظرتُ إلى النوايا. الناس يخبرونك مَنْ يودّون أن يكونوا؛ وسلوكهم يخبرك مَنْ كانوا زمناً كافياً حتى صاروه.

ليس هذا بحثاً أنثروبولوجياً، ولا رسالة طبية، ولا تحليلاً اجتماعياً. إنه وجهة نظر رجل مرّ بأناس وبلدان ومن وفصول من العمر، وهو يراقب ما يفعلونه أكثر مما يعلنونه.

وهكذا، حين يظهر أمامك حامل شيفرة غير شيفرتك، لا يستوقفك بما يقوله. يستوقفك بالطريقة التي يقوله بها. بتلك المسافة التي لا تكاد تُلحظ بين الحركة والكلمة. بتلك العفوية التي لا يمكن تقليدها طويلاً. بذلك الصمت الذي يسبق الجواب. بذلك الاختيار الذي يتكرر مع الزمن حتى يُعرف به. ولعله، بعد أن يروي لك حكاية، لا يطلب إلا دولاراً واحداً لقاء أن يُصغى إليه — لأنه يعرف أن قيمة الحكاية ليست في الثمن الذي تناله، بل في السلوك الذي تفلح في أن تتركه وراءها.

ثانياً. خاتمة

الشفرة لا تكتب اسمها أبداً. ومع ذلك توقع كل اختيار تتخذه.

ثالثاً. صفحة المؤلف

لم يُكتب هذا العمل بتكليف من أحد.

لم يُبع.

لم يُنجز لغرض تجاري.

كُتب ليشهد لقيمة معرفة الذات، وللطبع الإنساني، ولتلك العمارة الصامتة للعقل التي لا يقدر أي تشخيص على تسميتها كاملة.

الأجر الوحيد المطلوب دولار رمزي — لا ثمناً للعمل، بل شهادة على التزام مشترك بثقافة الملاحظة والصدق والرعاية.

فرديناندو

Gillette ← PDF، ملحة المريض

استكشف الملاحم الأخرى

· Vatican · One Door · Genesis · Opera · Wood · المكتبة · الخرائط · The Corpus

اتصل بنا